القرن التاسع عشر وصناعة التاريخ

فيصل محمد شقير(*)

يحتل التاريخ مكانة متميزة وسط العلوم الإنسانية، ويُعد التاريخ من المواد الاجتماعية التي تعنى بدراسة الإنسان من حيث علاقاته مع الأفراد والجماعات وعلاقاته مع بيئته والمشكلات الناجمة عن هذه العلاقات، وخاصة وأن الكائن البشري يمتاز من بين كل الكائنات بالذاكرة، ذاكرة فردية، وذاكرة جماعية، إنّ التاريخ هو ذاكرة الجماعات هكذا كان قديماً، وهكذا هو اليوم.

وفي لغتنا العربية تأتي كلمة التاريخ والتأريخ بمعنى الاعلام بالوقت وتاريخ شيء من الأشياء قد يدل على وقته الذي ينتهي إليه مضافاً إليه ما وقع خلال هذا الوقت[1] ويقول السخاوي عن التاريخ إنه فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث التعيين والتوقيت وموضوعه الإنسان والزمان[2]، ولقد تطور مفهوم التاريخ وتغيرت النظرة إليه عبر العصور التاريخية.

ولقد شهد القرن التاسع عشر تطورات واسعة شملت جوانب التاريخ المختلفة، فقد حدثت زيادة في حجم المادة التاريخية كان مصدرها تنوع فروع التاريخ وآفاق المعرفة التاريخية واحتوائها بجانب كل ما كانت تحتويه من قبل، علم تاريخ العلوم والفكر والتطورات الاجتماعية والاقتصادية وتاريخ الفنون، والتواريخ المقارنة من جهة، ويقظة الشعوب التي كانت مغلوبة على أمرها والتي أخذت تشارك في كتابة تاريخها والإضافة إليه.

إنّ تجدد الدراسات التاريخية واتساع حقلها ودقة طرائقها في البحث جعلت القرن التاسع عشر قرنَ التاريخ[3] ومن أهم التطورات التي شهدها التاريخ في هذا القرن:

أولاً: ظهور التاريخ العلميّ:

تميز القرن التاسع عشر بظهور الطريقة العلمية في كتابة التاريخ وكان ذلك على يد مدرسة علمية من المؤرخين بزعامَة المؤرخ الألماني الشهير ليوبولد فون رانكه (1795 - 1886) الذي دعا المؤرخين إلى الاهتمام بالوثائق ومخلفات الماضي، وذلك ليكون بحثهم عن

(*) كاتب وباحث من القطر العربي السوري.

الأحداث والأحوال الماضية دقيقاً، وكانَ شعاره، دع الوثائق تتكلم بنفسها، ولقد حَاول رانكه مع أتباعه تطبيق طريقة دقيقة على الأساليب المتبعة في البحث والتأليف التاريخي، وذلك عن طريق الرجوع إلى الوثائق والمصَادر الأولية ونقدها والتحقق منها[4].

وكذلك اشتهر رانكه بنزاهته وعدالته، ورغبته في الوصول إلى الدقة في تحري المعلومات ومعرفة الحوادث وكيفية وقوعها بالإضافة إلى ذلك اشتهر بقدرته على بناء القصة التاريخية[5]. ومن كتبه الهامّة (تاريخ فرنسة) (تاريخ الشعوب اللاتينية والجرمانية) (تاريخ انكلترا) (تاريخ بروسيا).

والنظرية الأساسية التي جاءَ بها رانكه قوله بأن التاريخ هو تصوير ما حدث بالضبط وبناء على ذلك قال المؤرخون بأن رانكه أعلن عن ميلاد التاريخ العلمي[6] ونتيجة لجهود رانكه وأتباعه ومؤيديه أصبح التاريخ علماً له ميدانه الخاص به وله مناهجه وحدوده، ولم يَعد يعتبر نوعاً من أنواع الأدب أو الفنون، وبدأت الجامعَات تخصص له الكراسي وتهتم بتدريسه، ومن أبرز مؤيدي علمية التاريخ في فرنسة، فرانسوا جينزو وجول ميشيليه، وهناك كثير من المؤلفين الآخرين الذين ساهموا في تنمية فكرة التاريخ العلمي، ولقد ظهروا في انكلترا وبلجيكا وسويسرا وهولندا والولايات المتحدة وغيرها، ومن الذين قالوا بعلمية التاريخ فوستيل دي كولانج حيث قال: «التاريخ علم إنه لا يتخيل، إنه يرى فقط، وهو كغيره من العلوم قوامُه الكشف عن حقيقة الوقائع ثم تحليلها، ودرس التقارب فيما بينَها والإشارة إلى الروابط الواصلة... والمؤرخ صنو الكيميائي هذا يجد وقائعه في الاختبارات الدقيقة التي يجريها، وذاك يبحث عن الوصولِ إليها بملاحظته الدقيقة أيضاً...»[7].

يقول المؤرخ بيوري وهو آخر سلسلة المؤرخين العلميين الذين أنتجهم القرن التاسع عشر، قرن التاريخ، بأن التاريخ عَلَم لا أكثر ولا أقل[8] ويقول سينوبوس في هذا المجال «التاريخ علم ما في ذلك ريب لأننا نستطيع أن نطلق كلمة علم على مجموعة من المعارف المحصلة عن طريق منهج وثيق للبحث في نوع واحد معين من الوقائع، ولقد صرح العالم بايكل وأنصاره مراراً إنّه إذا لم يعتبر التاريخ علماً وضعياً فلا قيمة له على الإطلاق في بناء الأخلاق وهدايَة الناس.

ورغم أنّ هذه النظرة العلمية للتاريخ قد لاقت معَارضة من قبل بعض المؤرخين والعلماء لأسباب متعددة فإن النتيجة كانت اكتساب التاريخ الصفة العلمية منذ القرن التاسع عشر.

إنه ليس بعلم إن شئنا أن نفهم من الكلمة المعنى الكلاسيكي لها ومعنى العلوم الطبيعية، وما تصطنع من وسائل منطقية ومن معَالجة وضعية للمادة. نكشف بها علاقاتها حتى تتحول تلك العلاقات إلى قوانين رياضية. التاريخ ليس من هذا أبداً، إنّه علم من ميدان آخر بعيد، إنه ثقافة بمعنى إعطاء الإنسان أبعاده كإنسان، إنّه علم إنساني، إنه معرفة مختلفة في الطبيعة والميدان والموضوع عن العلوم الطبيعية، وعَدم علميتها حسبَ المناهج مناهج هذه العلوم لا يعني عدم علميتها المطلقة ولا ينقص من قيمتها كمعرفة إنسانية ولكنّه يعني أنّ العلماء لم يصلوا بعد إلى المقولات والوسَائل والمناهج التي تتناسب في التعقيد مع مادة التاريخ والتي تستطيع أن تضم بين حدودها الشاملة آفاقه اللامتناهية، والتاريخ كعلم إنساني له علميته الخاصة أي طرائقه ومنطقه في فهم الموضوعية الزمنية التطورية وفي الوصول إليها عبر متحولاته الثلاثة: الزمان، والمكان، والإنسان[9].

ولقد جهد المؤرخون والباحثون منذ القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين على وضع القواعد والأسس التي يلتزم بها المؤرخ والباحث لكي يكون

بحثه منسجماً مع البحث العلمي، وهم يرون بشكل عام أنّ منهج البحث التاريخي يتألف من عدة خطوات تلي اختيار الموضوع المراد معالجته، ويمكننا تلخيص هذه الخطوات بالنقاط التالية:

- **مرحلة جمع الأصول:**

أي جمع المصادر والوثائق التاريخية المختلفة التي لها علاقة بالموضوع المراد معالجته والتي سوف يستند عليها الباحث مثل الكتب والمعاهدات والمراسلات، والسجلات الرسمية والقوانين، والمذكرات وما إلى ذلك، وخاصّة ما كان منها معَاصراً للموضوع المُراد معالجته.

- **مرحلة النقد** والمقصود بذلك نقد المصادر التي جمعها الباحث بقصد التأكد من صحتها، وسلامتها، والنقد نوعان:

نقد خارجي يهدف إلى التأكد من صحة الوثائق أو الأصول الموجودة بين يدي الباحث.

ونقد داخلي يفسر النص ويظهر معناه ويكشف عن مآرب المؤلف ودقته في الرواية.

- **الربط والتأليف بين الروايات المختلفة وانتقاء المهم منها.**

- **التعليل والإيضاح:** أي أنّ الباحث يذكر **أسباب** وقوع الحوادث.

- **تقرير النتائج** وهذا يتضمن عَرض المعلومات التاريخية التي توصل إليها الباحث بشكل علمي صحيح[10].

ثانياً: نظريات التفسير التاريخي:

لقد تبلورت في القرن التاسع عشر نظريات التغير لتاريخيّ التي ظهر بَعْضها منذ زمن اليونان ولقد اهتمت فلسفة التاريخ بهذه النظريات التي كان لها **مؤيدوها، وأنصارها، وكذلك معَارضوها، وهذا** سَاعَد على تطور هذه النظريات التي تحولت إلى مدارس سميت بمدارس التفسير التاريخي التي استمدت اتجاهاتها من آراء وفكر بعض المؤرخين والفلاسفة العظام ومن أقدم هذه النظريات **نظرية التفسير الديني** التي تعتقد بأن التاريخ يسير بخط مستقيم منذ بدء الخليقة، وحتى اليوم ويوم الحسَاب وأن حركة التاريخ ليست سوى الخطة الإلهية لخلاص العالم فهناك إله واحد مسيطر على كل شيء[11].

وهناك أيضاً **النظرية الجغرافية** في تفسير التاريخ التي تفسر الأحداث التاريخية في ضوء عوامل أساسية هي العوامل الجغرافية، وهذا ما أكده الفيلسوف والمؤرخ الفرنسي **مونتسكيو** الذي فسر الأحداث التاريخية بأسباب جغرافية مثل تغلبات المناخ والأحوال الجغرافية الأخرى من زلازل وكوارث طبيعية[12].

أما **التفسير الدوري** للتاريخ الذي يقوم على نظرية الدورات الحضاريَة التي تفسر التاريخ بأدوار تمر بها كل أمة من ا لأمم لابد وأن ينتهي بالإنحلال، ومن مؤيدي هذه النظرية المؤرخ العربي ابن خلدون والمؤرخ الألماني **اشبنجلر**.

أما **النظرية المادية** في تفسير التاريخ فإنها تقوم على التفسير الذي قدمه كارل ماركس الذي ربط الأحداث التاريخية بالتطورات الاقتصادية التي تمر بها المجتمعات على أساس تقرره المادة، والمادة التاريخية بسبب روح الإصرار التي تميزها في اتباع هذا المبدأ، لا تفعل إلا أنّ تبين بطريقة مثيرة تلك الميتافيزيقا التي تتضمنها كل نظرية تاريخية أخرى لأنّ إمكان النفوذ في التأثير المتبادل لكل العوامل التاريخية، أمر غير ميسور لنا. وبينما هذا وحده هو الذي يجعلنا نتصور الوحدة الفعلية للتاريخ[13].

بينما يرى كروتشه أن **طابع الأسطورة** يسود كل الفلسفات التاريخية لأنها تهدف إلى الكشف عن خطة في العالم من ميلاده إلى فنائه أو من دخوله في الزمان إلى دخوله في الأبدية ويشيع فيها لاهوت أو عالم من الجن[14].

أما **النظرية المثالية** في تفسير التاريخ فإنها تقوم على أفكار وفلسفة الفيلسوف الألماني هيجل الذي يعتبر العقل أو الفكر أساس كل ما هو موجود في هذا العالم فالعقل هو جوهر التاريخ[15].

ويقول كروتشه بأن التاريخ في جوهره فعل للفكر ولابد من الإشارة إلى: **التفسير الطولي للتاريخ** الذي يعود في أساسه على أفكار المؤرخ اليوناني توكيديدس صاحب نظرية الرجل العظيم ومن أنصار هذه النظرية في القرن التاسع عشر المؤرخ والفيلسوف الاسكتلندي توماس كارليل الذي يقول في كتابه الأبطال: إنّ تاريخ هذا العالم إنّما هو تاريخ من ظهر في هذه الدنيا من عظماء فهم الأئمة، وهم المكيفون للأمور، وهم الأسوة والقدوة، وهم المبدعون لكل ما وفق إليه أهل الدنيا وكل ما بلغه العالم وكل ما نراه في هذا الوجود[16]. ولكن هذه النظرية تمَّ نقدها ورفضها حيث قيل بأن التاريخ إنّما هو من صنع الشعوب، وليس من صنع الأفراد، وما الأفراد إلا نتاج من هذه الشعوب.

والخلاصَة أنه سواء اتجه التطور التاريخي إلى مزيد من التفاضل للأفراد أو إلى مزيد من التشارك وسواء قامت الثقافة الأخلاقية على الثقافة العقلية أو على العكس كانت لها قوانينها الخاصّة للتطور وهي قوانين عَرضية بالنسبة إلى الثقافة العقلية[17].

ثالثاً: تعدد فروع التاريخ وأقسامه:

لقد كان من نتائج تغير النظرة إلى طبيعة التاريخ زيادة المادة التاريخية ولقد تحدث علماء التاريخ في الغرب عن طفرة الدراسات التاريخية في الغرب ويرجعون هذه الطفرة إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر عندما فتحت دور المحفوظات الأوروبية أبوابها لأهل العلم، فأخذوا يستخرجون كنوزها وينشرونها على الناس، فكانت هذه الثروة الضخمة حافزاً للكثيرين على الاتجاه نحو دراسة التاريخ على أسَاسها ومن ثم حدث ما يسمى عادة بالانفجار الواسع المدى في الدراسات التاريخية[18]. ولقد كان من نتائج تغير النظرة الطبيعية إلى طبيعة التاريخ والاتجاه نحو اعتباره علماً اجتماعياً يعالج ماضي البشرية من مختلف الجوانب ضمن إطار الزمان والمكان أيضاً ان تعددت فروع التاريخ وأقسامه ولقد تبلورت هذه الفروع بشكل واضح خلال القرن التاسع عشر وبعده، ولقد تم تقسيم التاريخ، وذلك تسهيلاً لدراسته إلى قسمين أساسيين هما:

1 ـ **التاريخ السياسي**: ولقد اهتم به الناس منذ أقدم العصور وخصص له المؤلفون القسم الأكبر من مؤلفاتهم وهذا النوع من التاريخ يهتم بالنواحي السياسية من أعمال البشرية، ولقد ظل التاريخ سياسياً لفترة طويلة من الزمان، وكان يتمثل في أعمال الأباطرة والملوك والحكام والأبطال في القوى التي تحدد مسَار التاريخ، فكان التاريخ سجلاً مكتوباً لحياة هؤلاء وحروبهم. فلقد كان التاريخ عند مؤرخي اليونان والرومان يهتم بالأمور السياسية وهذا الاهتمام استعيد في عصر النهضة حيث بدأ التاريخ يفقد طابعه الديني، ويهتم بنشاط الإنسان وأعماله، وبالتثقيف السياسي وأخذ الحكام يستعينون بالمؤرخين في تدوين تاريخ دولهم.

ومنذ القرن التاسع عشر بدأت فروع التاريخ وأقسامه تتمايز، فهناك تاريخ السير والتراجم الذي يهتم بسير الأفراد البارزين في التاريخ مثل القادة والأبطال والزعماء والملوك وبأعمالهم، وهنالك أيضاً التاريخ الدستوري الذي يهتم بنشوء ونمو المؤسسات الدستوريَة، وهناك التاريخ الدبلوماسي الذي يهتم ويبحث في العلاقات بين الدول وهنالك التاريخ البرلماني الذي يمكن اعتباره فرعاً من فروع التاريخ الدستوري، يُضاف إلى ذلك تاريخ الاستعمار القديم والحديث، والتاريخ الحربي بفروعه المختلفة: البرية، البحرية، الجوية.

2 ـ **التاريخ الحضاري:**

بدأ المؤرخون يهتمون بهذا التاريخ بشكل واضح منذ القرن التاسع عشر، وهذا النوع من التاريخ يهتم بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والفنية.

أما بالنسبة للتاريخ الاجتماعي، فقد تم الاهتمام به بعد ظهور فولتير (1694 - 1778) وبلغ التاريخ ذروته في أوائل القرن العشرين، وأصبح هدف المؤرخ يتجه نحو دراسة المجتمعات التاريخية وبيانَ تطورها التاريخي والعوامل التي أثرت في هذا التطور.

ومنذ القرن التاسع عشر أيضاً بدأ الاهتمام بالتاريخ الاقتصادي الذي استمد بدايته من التاريخ الاجتماعي ثم أصبح مستقلاً له فروعه المختلفة كفرع تاريخ التجارة وطرقها ونظرياتها، وفرع الزراعة وأساليبها وأنواعها، وفرع الصناعة وكل ما يتعلق بها... ويروي التاريخ الاقتصادي بشكل عام قصة الطرق المختلفة التي استطاع الإنسان أن يكسب عيشه عن طريقها وأنْ يستغل بيئته ويعدل فيها لمصلحته المادية ويبين الأثر الاقتصادي في حياة الأفراد والشعوب..."[19].

أما التاريخ الفكري فقد بدأ الاهتمام به إلى جانب التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، ويقصد به دراسة حالة الأمّة الفكرية في أطوارها المختلفة من حيث مستوى رقي وتقدم العلوم واللغة وطرق التفكير مع الإشارة إلى كبار المفكرين والعلماء والمخترعين والمكتشفين وغيرهم الذين ساهموا في دفع عجلة الحضارة الإنسانية إلى الأمام.

يُضاف إلى ذلك تاريخ الفنون وهو يروي قصة تطور الفنون المختلفة في كل عصر من العصور التاريخية، مثال ذلك تاريخ البناء والنحت، والرسم والتصوير والموسيقا وما إلى ذلك، وهذه الفنون بمجموعها تساعد على توضيح جزء هام من النشاط الإنساني عبر العصور التاريخية.

ولقد تطور التاريخ في القرن الحالي وانتشر تدريسه في مختلف مراحل التعليم العادي والعالي.

الحواشي

1 ـ آ. ل. راوس ـ **التاريخ أثره وفائدته**، ترجمة محي الدين حفني ناصيف، مؤسسة سجل العرب القاهرة 1968 م ص 56.

2 ـ شمس الدين محمّد بن عبد الرحمن السخاوي: **الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، مطبعة الترقي، دمشق 1349 هـ ص 7.

3ـ بيير هنري سيمون: **الفكر والتاريخ**، ترجمة عادل العوا، المطبعة الهاشمية، دمشق 1963 ص 7.

4 ـ Johnsohn Henry: **Teaching History**, New york 1962 p.12.

5 ـ حكمت أبو زيد: **التاريخ تعليمه وتعلمه حتى نهاية القرن التاسع عشر**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1961 ص - 177 178.

6 ـ شاكر مصطفى: **التاريخ هل هو علم** ـ مجلة عالم الفكر، عدد خاص بفلسفة التاريخ، العدد الأول ـ الكويت 1974 ص 188.

7 ـ جوزف هورس: **قيمة التاريخ** ـ ترجمة نسيم نصر، منشورات عويدات بيروت 1974 ص 65.

8 ـ شاكر مصطفى: **التاريخ هل هو علم؟** ـ مصدر سابق ص 187.

9 ـ الأنجلو أوسنيوبوس: **النقد التاريخي** ـ ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار النهضة العربية ـ القاهرة 1963 ص آ من المقدمة،

10 ـ شاكر مصطفى مصدر سابق ص 212 - 213.

وانظر المصادر التالية:

ـ أسد رستم: **مصطلح التاريخ** ـ منشورات المكتبة العربية صيدا ط 2، 1955 ص 1, 10, 43, 119.

ـ حسن عثمان: **منهج البحث التاريخي**، دار المعارف، القاهرة ط 2، 1965 ص 181-192.

ـ ديوبولد فان دالين: **مناهج البحث في التربية وعلم النفس**، ترجمة محمد نبيل نوفل وآخرون، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة 1969 ص 297-306.

ـ جابر عبد الحميد جابر وأحمد خيري كاظم: **مناهج البحث في التربية وعلم النفس**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1973 ص 113 - 116, 120, 125.

11 ـ عماد الدين خليل: **التفسير الإسلامي للتاريخ**، دار العلم للملايين، بيروت ط 1975 ص 14.

12 ـ البان. ج. ويدجري: **التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى توينبي**، ترجمة عبد العزيز توفيق برجاوي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1972 ص 143.

13 ـ عبد الرحمن بدوي: **أحدث النظريات في تفسير التاريخ** ـ مجلة عالم الفكر، مصدر سابق ص 226.

14 ـ المصدر السابق ص 227 - 228.

15 ـ رينيه سيرو: **هيغل والهيغلية**، ترجمة نهاد رضا، دار الأنوار، بيروت (لا تاريخ) ص 42.

16 ـ توماس كارليل: **الأبطال**، ترجمة محمد السباعي. دار الكاتب العربي، بيروت ص 15.

17 ـ عبد الرحمن بدوي: مصدر سابق ص 224.

18 ـ حسين مؤنس: **التاريخ والمؤرخون**، مجلة عالم الفكر، مصدر سابق ص 67.

19 ـ حكمت أبو زيد: مصدر سابق ص 178 - 193.